المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد الثامن عشر، يونيو ٢٠١٧ م

الحماسة والمروءة والحكمة وفلسفة الحياة في شعر المتنبي: دراسة تحليلية

دكتور محمد تاج الإسلام *

Abstract

The most prominent and influential Arabic poet Abu at-Tayyib Ahmad ibn al-Husayn al-Mutanabbi al-Kindi (915 - 965AD) was born in Kindi of Iraq on 23 September, 915 AD. He is famous by the nickname Al-Mutanabbi. He is considered as one of the greatest poets in Arabic literature, not only in the Abbaside age but also over all the ages from the age of Jahili to our modern age. He was a poet by nature who started writing poetry when he was nine years old. Then he continued his writing and left a lot of poetry in Arabic. The collection of his poetry has been published by the name of Diwaan al-Mutabbi. Many of his literary works have been translated into various foreign languages in the world. We know that Al-Mutanabbi has written in all branches of Arabic poem. But the main trend of his poetry is al-Madh (praise), ash-Shaza`ah (courage), al-Hamasah (enthusiasm), al-Fakhr (pride) al-Hikmah (wisdom), falasifah al-hayah (philosophy of life). So, I have selected these branches from his poetry to study and explain. I believe that the output of this article will be very helpful to our learners and researchers.

Key words: Poetry of praise, courage, enthusiasm, pride, wisdom, philosophy of life.

* أستاذ مساعد، قسم العربية، جامعة داكا

المقدمة

جدير بالذكر إن الشعر العربي لغني وقديم قدم هذه اللغة العربية، واستمر هذا الفن الأدبي من العصر الجاهلي حتى الآن على سمو حالته ورفيع منصبه وعظيم شأنه — وإن انحط قليلا في عصر الانحطاط من سنة ١٢٥٨ إلى ١٧٩٨ (من بعد انهلاك بغداد إلى بداية العصر الحديث)، فإذا نظرنا إلى تاريخ الشعر العربي وشعرائه من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث وجدنا شعراء كثيرة الذين تركوا خدمات جليلة وعبقريات فاخرة لإحياء هذا الفن الجميل، ومن بين تلك الشعراء الشاعر أبو الطيب المتنبي الذي نبغ شاعرا فاخرا ورائدا قويا في العصر العباسي، ولهذا الشاعر عبقريات منفردة في أغراض الشعر المختلفة ومواضيعه، ولذا إني انتخبت هذا الشاعر لأن أدرس وأبحث في أشهر أغراض شعره – من الفخر والشجاعة والمروءة والحكمة وفلسفة الحياة — كيء أستطيع أن أقدم أمام قرائنا وطلابنا صورة مؤجزة على هذه الأغراض الرائعة للشاعر المتنبي.

مختصر من حياة المتنبي

هو شاعر فاخر من فحول الشعراء في العصر العباسي، إسمه أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الكندي، المعروف بالمتنبي، يقول مصطفى سبيتي: "لقب بالمتنبي لادعائه النبوة في بادية السماوة ..."[١] كما أنه سمي بألقاب كثيرة، منها أعجوبة عصره، ونادرة زمانه، ولد هذا الشاعر المتنبي في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ في قبيلة كندة، فنسب بهذه القبيلة.

لا يُعلمُ كثير من حياته الطفولية والدراسية، لكنه كان متمكنا في اللغة العربية وأعلم عصره بقواعدها ومفرداتها، وبهذا أصبح من أفصح شعراء العرب ومن أعظمهم، وظل شعره إلى اليوم مصدرا قويا لإلهام الشعر، ووحيا بارزا للشعراء والأدباء، ولقد أنشد المتنبي الشعر صبيا، فوجدنا أول شعره وكان عمره تسع سنوات فقط، أشتهر المتنبي بحدة الذكاء وشدة الاجتهاد، فظهرت عبقرياته الشعرية في بداية حياته، لقد قُتل هذا الشاعر الجليل سنة

٣٥٤ هـ وانتقل إلى دار البقاء، يقال: "قتل المتنبي مع ولده مُحسد وغلامه مفلح على مقربة من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد، وكان مقتله في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هـ، ٢٧ يوليو سنة ٩٦٥ م.[٢]

ولقد احتل الشاعر المتنبي في مكانة سامية لم يستطع أحد من عصره أن يحتل فيها، فهو شاعر حكيم، وناظم في فلسفة الحياة والمدح والفخر والحماسة والشجاعة والبسالة والمروءة والأبوءة والأخلاق الحسنة وشعور الحياة الرفيعة، فمن هذه جوانب أشعار المتنبي ومواضيع أبياته وأغراض قريضه انتخبت الفخر والشجاعة والمروءة والحكمة وفلسفة الحياة في هذه المقالة، لأدرسها دراسة تحليلية ولأبحث فيها بحثا علميا وأدبيا.

الدراسة في أغراض الشعر للمتنبي

لقد أنشد المتنبي في كل غرض من أغراض الشعر العربي من الجاهلية إلى آوانه، مثلا من الفخر والحماسة والشجاعة والمدح والأضياف والحرب والبطولة والحسب والكرم والمجد والمروءة وغيرها، لكنه اشتهر بالفخر والمدح والشجاعة والمروءة والحكمة وفلسفة الحياة من بين الأغراض كلها، فالدراسة فيها من الذيل.

١. الحماسة والشجاعة في أبيات المتنبي

معاني الحماسة في المعاجم اللغوية العربية

الحَمَاسَةُ اسم مصدر من باب كرُم – يكرُم، على وزن: حمُس – يحمُسُ، يُقال: أظْهَرَ حَمَاسَةً فِي الْمَعْرَكَةِ: أي أظهر شَجَاعَةً ، حَمِيَّةً ، حَيَوِيَّةً ، حِدَّةً، محاربة، تشددا. ويُقال: عَبَّرَ عَنْ حَمَاسته، أي أظهر، والتَّحمُّسُ– التشدد، والحَماسَة: المَنْعُ والمُحارَبَة،

ودِيوَانُ الحَمَاسَةِ : مَجْمُوعُ قَصَائِدَ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ تَدُورُ حَوْلَ الأَمْجَادِ وَالبُطُولاَتِ فِي الحُرُوبِ .[٣]

فعلمنا أن الحماسة غرض من أغراض الشعر العربي الجاهلي، والحماسة في الشعر العربي هو الشعر الذي يثير الفتوة والشجاعة في نفس الشاعر أو في نفس الشجاع أو في نفس المستمع، ومجالات الحماسة كثيرة وغير محدودة، وليست الحماسة تأتي في ميادين المعارك فقط، لكنه في أغلب الأحيان يتبادر في الذهن بأن الحماسة متعلقة بالحرب.

ولقد توسع أبو الطيب المتنبي معنى الحماسة وتحولها إلى معاني متجددة من واسطة أشعاره الحماسية، وكانت تستخدم الحماسة فيما قبل في مفهوم محدود من فتوة الشجاع وبطولته في الحرب.

فالحماسة عند المتنبي متفرعة في مختلف الأغراض، منها المدح والرثاء والفخر مع مفهومها الفتوة والبطولة في الحرب، فهو يظهر الحماسة في مدح الممدوح وفي رثاء الأحباء وفي فخر الأنفس وفي فخر نفسه وفي وصف الحروب.

فإذا يمدح المتنبي ممدوحه فلا يصف أوصافه التي توجد فيه فقط، بل يصف معها الأوصاف التي يتمنى المتنبي أن تكون في ممدوحه.

مثلا يقول المتنبي وهو يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران[٤]:

كرم تبين في كلامك ماثلا * ويبين عتق الخيل في أصواتها[٥]

معنى البيت

يقول الشاعر خطابا إلى ممدوحه، بأن الكرم والمجد يظهر في كلامك وصوتك صريحا، يعني إذا يتكلم الممدوح ويتحدث يفهم من كلامه وصوته بأنه كريم وشريف وذو مجد رفيع، ثم شبه الشاعر هذا المجد والكرم بكرم الخيل العتيق الذي يظهر عتقه ومجده في الأصوات، يعني يعلم عتق الخيل ومجده وشرفه من سماع صوته.

ففي هذا البيت عبر الشاعر من أوصاف ممدوحه مع أنه يتمنى بأن يكون ممدوحه مثل هذا البيت، بأن يكون شريفا وكريما وصاحب مجد، فيظهر مجده وشرفه من صوته عند كلامه، كما يظهر كرم الخيل والفرس من صوته.

ثم يقول الشاعر:

أعيا زوالك عن محل نلته * لا تخرج الأقمار عن هالاهتا[٦]

يقول في شرح هذا البيت وهوامشه مصطفى سبيتي: أعيا أعجز، زوالك ذهابك، وجمع الأقمار يعود إلى قمر كل شهر.[٧]

فيقول الشاعر بأنه لا يمكن أن يتغير ويتحول ويزول مكان ممدوحه الذي ناله وكسبه، فإنه مكان ثابت وخالد له، لا محالة له ولا زوال له، وفي المصراع الثاني شبه الشاعر هذا المكان الثابت مع عدم خروج الأقمار عن معارجها.

فهذا البيت في وصف ممدوحه، مع ذلك يتمنى الشاعر في نفسه بأنه ينبغي ويجب أن يكون ممدوحه صاحب المجد الرفيع والشرف الخالد.

هكذا إذا فحصنا في ديوان المتنبي وجدنا كثيرا من الأبيات أنشدها الشاعر في الحماسة والشجاعة، فحان الوقت أن نجمعها ونشرحها على قياس عنوان المقالة.

ومطالب فيها الهلاك أتيتها * ثبت الجنان كأني لم آتها

ومقانب بمقانب غادرتها * أقوات وحش كن من أقواتها[٨]

معنى البيتين

يقول الشاعر: كم من مطلب كبير وغاية شديدة ومقصد صعب – كان الهلاك لازما فيها – أتيتها وجعلتها منفذة ومفازة، وذلك بقلب ثابت واطمئنان عميق وعزم قوي، فبعد الاتيان في تلك المطالب والفوز في كلها والرجوع منها ظننت بأني لم أذهب إليها، وذلك لسهولة الفوز والغلب.

ويقول الشاعر في البيت الثاني، سرنا في كثير من غزايا بفوارسنا القليلة لمقابلة فوارس الأعداء الكثيرة والقوية، لكن بعد المقابلة في غزوة شديدة تركنا فوارس الأعداء وعساكرهم

أقوات الوحوش والحيوانات، ولو قيل قبل ذلك بأن فوارسنا ستصير أقوات الوحوش في الحرب الآتي.

من المعلوم، إن البيان المذكور على حماسة الشاعر النفسية، قد بين الشاعر فيه صورة غزوة شديدة خيالية، بأنه تصور في نفسه منظر غزوة عنيفة مع الأعداء، ففاز الشاعر في تلك الغزوة، وهكذا يتمنى الشاعر أن يكون كل رجل وكل فارس شجاعا وبطولا في غزوة حياته.

ثم بين الشاعر كيف أمكن له ذلك الفوز! فقال:

أقبلتها غرر الجياد كأنما * أيدي بني عمران في جبهاتها

الثابتين فروسة كجلودها * في ظهرها والطعن في لباتها[٩]

بأنه أقبل في تلك الغزوة بالجياد التي صارت غرة المحجلين بمسح أيدي بني عمران في جبهاتها، وأن الشاعر وفوارسه كانوا جالسين على ظهورها ثابتين كما تثبت الجلود مع لحومها، لا تتحرك ولا تتحول، وذلك في ميدان الغزوة الحارة حين كانت الطعن والرمح تأتي من قبل الأعداء وتلحق في لبات الجياد.

وبعد ذلك، بين الشاعر التاريخ الفاخر بين أجداد الشاعر وبين أمهات هذه الجياد بأن التعارف بينهما لشديد، يعرف الراكب والمركوب بعضهما بعضا، وكلاهما ولدا ونتجا في ميادين الحرب، لا في البيوت ولا على السرر، ولذا أمكن له الغلب والفوز في تلك المعارك والمطالب كلها.

فرأينا، كيف أظهر الشاعر الشجاعة والبطولة لنفسه أولا، ثم ألقى كل ذلك من الحماسة والفخر والفتوة إلى شأن ممدوحه، بأن كل الأمر المذكور أمكن بفضل ممدوحه بني عمران.

ثم يقول الشاعر في فروسية ممدوحه:

لو مر يركض في سطور كتابة * أحصى بحافر مهره ميماتها

يضع السنان بحيث شاء محاولا * حتى من الآذان في أخراتها[١٠]

أنشد المتنبي هذين البيتين في فروسية ممدوحه أبي أيوب أحمد بن عمران، و أظهر من بينها حماسته وشجاعته ومهارته في الفروسية، فقال، إن بن عمران لو أراد أن يركض بفرسه في سطور كتابة لاستطاع أن يحصي عدد الميمات في تلك الكتابة بحافر الفرس، والمعنى أنه ماهر في الفروسية، يستطيع أن يُجري الفرس وأن يضع أقدام الفرس حيث شاء، كما يقول في البيت الثاني، بأنه يستطيع أن يضع السنان والرمح على أجساد الأعداء بحيث شاء، حتى أنه إن أراد أن يضعه في ثقب أذن الأعداء لاستطاع ذلك جميلا، وأن الشاعر استعمل لفظ الوضع مكان الإلقاء مشيرا إلى أنه لا يلقي الرمح في الحرب بل يضع، كأنه ليس في المعركة بل في السلامة، ففي هذين البيتين أظهر المتنبي حماسة ممدوحه، ولكن ذلك بأسلوب المدح.

هذا هو الشاعر الحماسي المتنبي لقد أنشد في فخر نفسه وشجاعته الشخصية، فقال:

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر * وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

وأشجع مني كل يوم سلامتي * وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر[١١]

يقول الشاعر مظهرا ومعلنا لشجاعته النفسية: أنا أهجم خيل الأعداء مع فوارسهم وأهجم الدهر معها، وكل ذلك أقابل أنا وحيدا ومنفردا، ثم غير الشاعر قوله "وحيدا" وقال أنا أنفذ هذه الأعمال ليس بوحدي، بل معي الصبر والعزم، كأنه جرد الصبر شخصا آخر من نفسه (أسلوب التجريد من المحسنات المعنوية[١٢])، فوجد الصبر جليسا له وقرينا معه في ذلك الهجوم.

ويقول في البيت الثاني، إن سلامتي لكل يوم هي أشجع مني. يعني، إني كنت دائما أبدا في الحرب وهجوم الأعداء، ومع ذلك أنا أسلم وأمكث مع السلامة، فلذا أنا شجاع، لكن سلامتي هي أشجع مني، وأن سلامتي لا تثبت (لا أمكث سالما وآمنا) كل يوم، إلا لتنفيذ أمر ذي شان.

التقييم لهذه الحماسة

ولو أن الحماسة المذكورة من قسم الحماسة النفسية للمتنبي، لكن الشاعر يتمنى من بينها أن يكون كل فرد من الأفراد وكل امرء من الناس متصفا بهذه الصفة الحماسية، فإذا كنت أنت وحيدا في طريقك لا ثانيا لك – لا تخف ولا تحزن، بل اجر واقدم إلى الأمام، فإنك ليس بوحيد، بل صبرك معك قرين وجليس.

وهذا المعنى الذي عبر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، فقال: لا تحزن إن الله معنا[١٣] – الآية.

وهذا المعنى في العزم والاطمئنان الذي عبره الشاعر العالمي البنغالي ربيندرا نات تاغور في إنشاده:

যদি তোর ডাক শুনে কেউ না আসে, তবে একলা চলো রে![١٤]

وإذا أصبحت أنت سالما وآمنا من الآفات والمصائب فسلامتك أشجع منك، فعليك أن تقصد أمرا وغاية لتنفيذ في ذلك اليوم، فإن أنت لا تقصد أمرا أو غاية فلِمَ سلِمتَ لهذا اليوم؟ وبالجملة، على كل امرء حي أن ينفذ كل يوم أمرا ما.

الممارسة بالآفات والدوائر الزمانية

يقول الشاعر أبو الطيب المتنبي:

تمرست بالآفات حتى تركتها * تقول أمات الموت أم ذُعر الذعرُ

وأقدمت إقدام الأتي كأن لي * سوى مهجتي أو كان لي عندها وِترُ[١٥]

الآفات معلقة مع حياة الناس اليومية، فإن تخف الآفات تُخز وتُهان، وإن تمارس معها تفوز وتفلح، فلا تخفْ الآفاتِ تخافُكَ الآفاتُ.

يقول الشاعر: إني أمارس مع المصائب والمشاكل كل يوم ممارسة يومية، حتى أتركها مهجورة ومرفوضة، لا تستطيع الآفات أن تؤثر في شيئا، ولكنها تقول أخيرا مع الأسف:

هل مات الموت أم خاف الخوف لهذا الرجل؟ يقول في هذا الصدد مصطفى سبيتي: "وكأن الأرض لا تتسع لصولة هذا الشاب الطموح المعتد بنفسه وبموهبته، فكل شيء محتقر في همته ..."[١٦]. وهكذا ينبغي على كل مرء أن يعامل المعاملة مع الآفات والمصائب والشدائد.

وفي البيت الثاني شبه الشاعر إقدامه إلى المصائب والشدائد مع إقدام السيل السريع، فإن السيل يأتي ولا يرجع، وقال أنه ليس بفرد واحد في سيره وإقدامه على طريق الشدائد، بل يكون معه وِتر له وهو الصبر والعزم والاطمئنان.

أين المجد والشرف؟

أجاب الشاعر عن هذا السؤال إجابة واقعية قوية، فقال، إن الرجل الحماسي يطلب المجد والشرف والكرم من رأس السلاح بالهجوم مبكرا ومن تضريب أعناق الملك الظالم ومن ترك صوت رفيع في الدنياء قبل فراقه، لا من فم إبريق الخمر ولا من رقص الجارية، يقول المتنبي:

ولا تحسبن المجد زقا وقينة * فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى * لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما * تداول سمع المرء أنمله العشر[١٧]

يقول الشاعر: لا يحسبن أحد بأن المجد يأتي إليه من شرب الخمر ومن طرق الشهوة بالنساء واللهو مع الراقص والراقصة، ولكن المجد والشرف والكرم يأتي من ضرب الأعداء بالسيف والهجوم السريع في كل صباح، حتى تُرى خلفك الغبارُ السوداءُ والهبواتُ الشديدةُ، ويأتي المجد من التضريب على عنق الملك الجائر، وأن تكون لك عسكر متدرب وماهر في سريع الهجوم، وأيضا يأتي المجد لك من تركك في الدنيا صوتا رفيعا ودعوة

عالية للذين لم يأتوا في الدنيا حتى الآن، فإذا يسمع الناس صوتك يضطرون أن يُدخلوا أنملهم العشر في آذانهم من الخوف الشديد.

هكذا ينبغي على كل امرء أن يفحص المجد الحقيقي والشرف الخالد لنفسه كيء يستطيع أن يخلد بعد موته.

ومن بين حماسة نفسه يقول الشاعر في أبيات آتية:

علي لأهل الجور كل طمرة * عليها غلام ملء حيزومه غمر
يدير بأطراف الرماح عليهم * كؤوس المنايا حيث لا تُشتهى الخمر
ويوم وصلناه بليل كأنما * على أفقه من برقه حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كأنما * على متنه من دجنه حلل خضر[١٨]

يقول: إني أحتاج إلى غلام ملأ صدره بالغمر والانتقام، الذي يدير أمام الأعداء أطراف الرماح والسلاح القاطع ككؤوس الموت، إذا يشربونها لا تُشتهى الخمر.

وهذا أسلوب الدعوة إلى بني الأمة لأن يرغبوا في الانتقام عن الحق فتزحق الظلمة والجهالة ويثبت الحق والصدق في مجتمع الناس.

وفي أثناء بيان الفخر والحماسة والشجاعة النفسية يقول المتنبي:

بأنه كم من يوم بدأ السير في الصباح لتحصيل غاية بعيدة فطال السير حتى التحق النهار بالليل، وبيد أخرى كم من ليل وصله الشاعر بالصباح في سيره وسفره الطويل.

هكذا أظهر الشاعر حماسته البارعة وشجاعته ويحث بواسطتها الناس لأن يتصفوا بها.

ويقول الشاعر وهو يحث الناس عدم اقتناع بقليل:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم[١٩]

يشجع المتنبي كل منفرد عامة بأنك إذا دخلت في طريق لحصول شرف مقصود فعليك أن تستمر السير في طريقك وأن لا تقف قبل أن تحصل غايتك النهاية وأن لا تقنع بقليل قبل وصولك إلى النجوم (وأراد بالنجوم الغاية المنشودة).

وفي البيت الثاني أتى الشاعر بقول حقيقي بأن ذوق الموت ولذته سواء ولو كان الموت في أمر حقير أم في أمر عظيم، فلذا ينبغي على كل امرء أن يموت في أمر عظيم في طريق غاية منشودة، ولا ينبغي على أحد أن يموت في أمر حقير على السرير في المنزل.

ثم يقول الشاعر في بيان قيمة العزم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتاتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها * وتصغر في عين العظيم العظائم[٢٠]

يقول الشاعر بأن العزائم والعظائم كلاهن تأتي على حسب عزم المرء وعظمه، فلذا تصغر العظائم في عين العظيم، وتكبر الصغائر في عين الصغير،

٢. المروءة في أشعار المتنبي

المروءة اسم مصدر من باب كرُم يكرُمُ، على وزن مَرُؤ يَمْرُؤ مُروءة، معناها: الرجولية والإنسانية، وكمال الرجولية، وبَيِّن المروءَة، قيل: صار ذا مُروءَةٍ، وقيل: رَجُلٌ ذُو مُرُوءةٍ: ذُو أَخْلاَقٍ، ذُو نَخْوَةٍ، وقيل: مرُؤ الشّخصُ: صار ذا مُروءة وإنسانيّة، تجنّب ما يشين[٢١].

و في معنى المروءَة اصطلاحًا، قال الماورديُّ: المروءَة مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتَّى لايظهر منها قبيحٌ عن قصد، ولايتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق[٢٢]،

وقال ابن عرفة: المروءَة هي المحافظَةُ على فِعْل ما تَرْكُه من مُباحٍ يُوجِبُ الذَّمَّ عُرْفًا...

وعلى ترْك ما فعلُه من مُباحٍ يوجبُ ذَمَّه عُرْفًا[٢٣]،

لقد أنشد المتنبي كثيرا من الأبيات حول المروءة، فإنه لايبقى شيء إذا زالت مروءة امرء، فالمروءة هي أصل المرء. يقول الشاعر:

فاطلب العز ولو كان في لظى * ودع الذل ولو كان في جنات الخلود[٢٤]

ومعنى البيت: أن العز مرغوب ومطلوب في أي حال من الأحوال، ولو كان العز في جهنم، والذل ممنوع ومتروك في أي حال من الأحوال، ولو كان الذل في الجنة الخالدة.

ويقول في حماية المروءة:

إذا نلت منك الود فالمال هين وكل الذي فوق التراب تراب[٢٥]

يعني الود مرغوب لا المال، فإن المال وما على الأرض كلها تراب.

ويقول في شان المروءة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل[٢٦]

والمعنى: إذا يلومك رجل رذيل وناقص فلومه دليل على كمالك،

ويقول أيضا في هذا الصدد:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٢٧]

والمعنى: أن العاقل لا يشبع ولا ينعم قط، ولو كان في النعيم؛ والجاهل يشبع وينعم بقليل، ولو كان في الشقاوة.

ويقول أبو الطيب:

وترى الفتوة والمروءة والأبوة في كل مليحة ضراتــهــا

هن الثلاث المانعاتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها[٢٨]

ذكر الشاعر ههنا ثلاثة أوصاف من مروءة أحد وإنسانيته، وهي: الفتوة يعني الكرم والسخاء، والمروءة هي التي نحن في مجالها، والأبوة هي الإباءة عن كل أمر شنيع والانتهاء عن المعاصي والذنوب، فهذه الصفات الثلاث تمكث في الشاعر تامة على كل حال، فلذا لا تستطيع النساء المليحة والكواعب الأتراب أن يجدن الشاعر مع العبث واللهو، فإن يجدنه ولو في خلوة لا يشغل الشاعر في فاحشة، لأن تلك الصفات الثلاث

تمنعه عن الاشتغال في كل معصية وحرام، ولا يمتنع الشاعر عن الشرور والعصيان خوفا من العواقب.

هذه هي أسوة عالية للمروءة والرجولية والإنسانية، ينبغي على كل امرء أن يتصف بها اتصافا كاملا وأن ينفذها في حياته الواقعية.

ويقول في هذا الصدد:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص * على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر[٢٩]

والمعنى:

عليك أن ترفع وأن ترجع عن أخذ الهبة والشكر من الرذيل والمحتاج على هبتك وإنفاقك له، وإلا تكون أنت أرذل وأنقص وأفقر منه، وبمثل هذا يقال: من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل يرفع قدر الجاهل عليه.

قال الله تعالى: وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى[٣٠] – الآية،

يقول المتنبي في البيت الثاني: أن الذي ينفق أكثر أوقاته في كسب المال وجمعه خوفا من الفقر، فهو أفقر الفقراء وأكبر المحتاجين، لأن الفقير يقنع إذا يستطيع أن يكسب طعام يومه، لكن هذا الرجل لايقنع ولايقف عن كسب المال وجمعه.

قال الله تعالى:

الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَه، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ[٣١] — الآية.

يقول المتنبي في صيانة المجد والمروءة:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراضلنا وعقول[٣٢]

والمعنى ظاهر في المروءة والرجولية، بأن المروءة في سلامة العرض والعقل، لا في سلامة الجسم.

ويقول الشاعر في هذا المجال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم[٣٣]

في ظاهر هذا البيت فخر لنفس الشاعر، لكن في باطنه مروءة ورجولية ودرس لكل امرء، فإنه ينبغي أن يكون كل امرء من الناس مؤدبا ومتصفا بهذا الأدب والصفة، فإن كان فيك أدب وكرم ومروءة لا شك أن الأعمى يستطيع أن يراها، وإن كان كلامك مهذبا وكلمتك مؤدبة ليسمعها الصم.

٣. الحكمة وفلسفة الحياة

الحكمة وفلسفة الحياة في الشعر العربي غرض قديم من الأغراض الجاهلية، استمر هذا الفرع من الشعر العربي إلى عصرنا الحديث، فوجدنا الشاعر الفاخر في العصر العباسي أبا الطيب المتنبي يقول كثيرا من الأبيات في الحكمة وفلسفة الحياة، يقول مصطفى سبيتي: "ومن خلال مدائحه وأهاجيه تطل حكمُ المتنبي وأقواله المأثورة نجوما يضيء في ظلام الدنيا وشعلا وهاجة في مسيرة الإنسانية، خالدة خلود الحياة تنتقل بين الأجيال أرثا غاليا وتراثا مثيرا للاعتزاز"[٣٤]. فمن أبيات المتنبي في الحكمة وفلسفة الحياة:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر[٣٥]

يقول الشاعر في البيت الأول حول الحكمة وفلسفة الحياة: أن العمر مسكن لجارين مختلفين ومفترقين من عالمين متضادين، والجاران هما النفس (الروح) والجسد (الجسم)، ودارهما العمر في الدنيا، فإن الروح والجسم يلحقان من عالمين متغائرين في دار العمر الموقوت، فالروح يأتي من عالم الأرواح والجسم يأتي من الأرض (الدنيا)، فيسكنان معا في عمر واحد، فإذا يفترق الروح من الجسم يسافر في عالم الأرواح، ويُتركُ الجسم في الأرض، فثبت أن الروح والجسم جاران مفترقان يجمعان في الحياة، ولذلك أمر الشاعر أن يدع النفس في العالم الطليق والفضاء الحر، لكيء تستطيع النفس أن تأخذ عالمها الواسع

وفضائها المديد، وذلك قبل فراقها عن الجسد، فإنه إن فارقت النفس عن الجسد لا تستطيع أن تطير وتسير حرا.

تأثرت هذه الفلسفة في حياة المرء كبيرا، إن يفهمها ويعمل بها. فلذا ينبغي على كل أحد أن يفعل ويعمل كل أفعال معروفة وأعمال محمودة في حياته الواحدة، فلا يجد فرصة العمل بعد افتراق روحه عن الجسم. والاستشهاد على البيت الثاني قد مضى.

ماذا يترك المرء في الدنيا! يقول الشاعر:

وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر[٣٦]

ولقد مضى الاستشهاد على هذا البيت، ومع ذلك أقول في هذا المجال بأنه لا شك ولا ريب في أن كل نفس تذوق الموت، فينبغي عليه أن يترك في الدنيا صوتا رفيعا (عملا مهما وفعلا كبيرا) لكيء يستطيع أن يحيي بعد موته في واسطة عمله ذلك، وإلا كثير من الناس يموتون كما يولدون، كأنهم ما وُلدوا وما ماتوا، فحياتهم ومماتهم في دائرة واحدة، لا تأثير لحياتهم ولا عبقرية في عمرهم، كأنهم جاءوا وأكلوا وذهبوا.

يقول الشاعر في فلسفة الحياة:

في الناس أمثلة تدور حياتها كمماتها ومماتها كحياتها

هبت النكاح حِذار نسل مثلها حتى وفرت على النساء بناتِها[٣٧]

لقد شرحنا معاني البيت الأول، وفي البيت الثاني يقول شاعرنا المتنبي: فلتلك الأسباب تركت النكاح وما نكحت في حياتي خوفا أن ألد نسلا عبثا، الذي يجيء في الدنيا ويأكل ويذهب.

هذه فلسفة الشاعر المتنبي في النكاح، كما كانت هذه فلسفة أبي العلا المعري[٣٨] أيضا. أيا كان، فقولي ههنا، إنه لينبغي على كل مرء أن يترك صوتا رفيعا في حياته وليسعى لذلك، ولكنه لا ينبغي عليه أن يترك النكاح خوفا أن يلد نسلا لا تأثير له، فعليه أن

ينكح ويلد ويسعى أن يجعله كما يتمنى الشاعر وأتمنى، فإنه في ترك النكاح تكذيب الحياة الإنسانية، ولا رهبانية في الإسلام.

ويقول الشاعر في فلسفة الحياة:

ولو أن الحيـاة تبقـى لحيٍّ لعددنـا أضلّنـا الشـجعـانا

وإذا لم يـكن من المـوت بدٌّ فمن العجـز أن تمـوت جبانا[٣٩]

ومعاني البيتين، أن الحياة لا تبقي لأحد، وكل يموت، فإن أحد يستطيع ألا يموت نعد رجالنا الشجعان من الأضل والأحمق، لكن الأمر ضد ذلك، فلا بد من الموت،

قال الله تعالى: أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [٤٠] – الآية.

فإذا الأمر هكذا فمن العجز أن يموت أحدنا جبانا على السرير في بيته، ولا يموت في ميدان الحرب لأمر عظيم.

الحاصل

لقد اختصرنا في بيان أبيات المتنبي في الفخر والحماسة والشجاعة والمروءة والأبوة والحكمة وفلسفة الحياة، وسوا ذلك له أبيات عديدة في كل غرض من هذه الأغراض، لكني لم اشتغل في جميعها لكيء لاتكبُرُ قوالب المقالة، فيُرجى أن هذا العمل يكون إشارة إلى الشاعر المتنبي في أشهر أغراض أشعاره.

المراجع والمصادر

١. مصطفى سبيتي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، صـ ٥

٢. ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٨ م، صـ ٥

٣. المعاجم العربية: الرائد، المعجم الوسيط، لسان العرب، اللغة العربية المعاصر وغيرها.

٤. أحد من وزراء العصر العباسي.

٣. ديوان المتنبي، من عنوان الشعر: وقال يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران، دار صادر، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، سنة– ٢٠٠٨،صـ١٢٥

٦. شرح ديوان المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م، صـ ٢٣٢

٧. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، شرحه وكتب هوامشه مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م، صـ ٢٣٢

٨. ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، سنة– ٢٠٠٨

٩. المصدر السابق

١٠. المصدر السابق

١١. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، من عنوان الشعر: ما المجد إلا السيف والفتكة البكر (يمدح علي بن أحمد بن عامر الانطاقي)، شرحه وكتب هوامشه مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م،صـ ٢٣٣

١٢. التجريد لغة، إزالة الشيء عن غيره، واصطلاحا أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله في تلك الصفة، السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، صـ ٢٩٨،

١٣. القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية: ٤٠

١٤. شاعر عالمي بنغالي ربيندرا نات تاغور، غيت بيتان، صـ ١٦٠، (صدر هذا الشعر غناء في جريدة بهاندار، سنة ١٩٠٥ م)

١٥. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، من عنوان الشعر: ما المجد إلا السيف والفتكة البكر (يمدح علي بن أحمد بن عامر الانطاقي)، شرحه وكتب هوامشه مصطفى سبيتي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م،صـ ٢٣٣

١٦. مصطفى سبيتي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، صـ ٦

١٧. ديوان المتنبي، وقال يمدح علي بن أحمد بن عامر الإنطاقي، دار صادر، بيروت، صـ ١٢٦

١٨. ديوان المتنبي، وقال يمدح علي بن أحمد بن عامر الإنطاقي، دار صادر، بيروت، صـ ١٢٦

١٩. المصدر السابق

٢٠. المصدر السابق

٢١. المعاجم: الرائد، المعجم الوسيط، لسان العرب.

[٢٢]. هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (٣٦٤ — ٤٥٠ هـ / ٩٧٤ — ١٠٥٨ مـ) أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، صاحب التصانيف الكثيرة، الفقيه الحافظ، من أكبر فقهاء الشافعية، والذي ألّف في فقه الشافعية موسوعته الضخمة في أكثر من عشرين جزءًا.

[٢٣]. هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي المالكي، الإمام الأصولي الفقيه المتكلم اللغوي المقرىء المتفنن، صاحب التصانيف الدقيقة، الأشعري المعتقد، وإمام جامع الزيتونة وخطيبه في العهد الحفصي، ولد سنة716هـ/1316م وتوفي سنة 803 هـ/1400م

[٢٤]. المصدرالسابق

[٢٥]. المصدرالسابق

[٢٦]. المصدرالسابق

[٢٧]. المصدر السابق

[٢٨]. ديوان المتنبي، من عنوان الشعر: وقال يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران، دار صادر، بيروت، سنة– ٢٠٠٨، صـ ١٢٥

[٢٩]. المصدر السابق

[٣٠]. سورة الليل، الآية: ١٩

[٣١]. سورة الهمزة، الآية: ٢ – ٣

[٣٢]. ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، سنة — ٢٠٠٨

[٣٣]. المصدر السابق

[٣٤]. مصطفى سبيتي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، صـ ٤٢

[٣٥]. ديوان المتنبي، وقال يمدح علي بن أحمد بن عامر الإنطاقي، دارصادر، بيروت، صـ ١٢٦

[٣٦]. المصدر السابق

[٣٧]. ديوان المتنبي، من عنوان الشعر: وقال يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران، دار صادر، بيروت، سنة – ٢٠٠٨، صـ ١٢٥

[٣٨]. أبو العلا المعري، شاعر في العصر العباسي وفلاسف ماهر الذي اشتهر بإسمه، (٣٦٣ هـ –٤٤٩ هـ).

[٣٩]. المصدر السابق

[٤٠]. سورة النساء، الآية – ٧٨